صور من القرن الثامن عشر

٣ــ جاكومو كازانوفا

جوّاب مجتمع ومغامر مرح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

هبط كازانوفا لندن يبحث وراء طالعه، ويلتمس الوسائل لخوض مغامرات ومشاريع جديدة، ولكنه ما لبث أن شعر بأن المجتمع الانكليزي الرصين لا يغزى بسهولة، وأن الأفق لا يتسع لمزاعمه المريبة، وأن محاولاته الغرامية تلقى مهادا صلبة؛ وشعر بالأخص بأن تلك الخلال والمؤثرات السحرية التي اجتذبت اليه من قبل عشرات الحسان لم يبق لها قوة في التأثير والاغراء. وهو يشير في مذكراته إلى ذلك الفشل في حزن ومرارة: «لقد سجلت هذا التاريخ — سبتمبر سنة ١٧٦٣ — باعتباره لعنة من لعنات حياتي، ولقد شعرت من بعده بأن تيار الكهولة يحملني مع أنني كنت في الثامنة والثلاثين». وهكذا اضطر كازانوفا بعد بضعة أشهر ارتكب خلالها كالعادة عدة محاولات وأعمال مريبة، أن يغادر لندن مثقلا بأعباء الخيبة والفشل

وأم كازانوفا برلين، واستطاع أن يقابل ملك بروسيا — فردريك الأكبر — ولكنه استقبله ببرود وتحفظ، ولم يظفر منه بطائل

عندئذ قصد إلى روسيا حيث تروج سوق المغامرة، وهنالك تعرف بالأمير كارل فون كورلاند، وهو أمير مرح فاسد السيرة ينغمس في مجالي اللهو والخلاعة، ويلتمس اكتساب المال بأي الوسائل، فتفاهما وتوثقت بينهما عرى الصداقة، واستطاع كازانوفا أن يجوز بواسطته إلى المجتمعات الرفيعة في ريغا وبطرسبرج وموسكو، وأن يستفيد فيها شطراً من حياة السرور والبهجة. ثم ذهب إلى بولونيا، وهنالك في وارسو خاض نفس الغمار المرحة المريبة معاً، ولفت اليه أنظار البلاط والسلطات بمشاريعه في عالم النساء والمقامرة، ومزاعمه في التأثير والشعوذة، واضطر غير بعيد إلى مغادرة وارسو؛ فتركها إلى ڤينا، ولكنه لم يستطع مكثاً بها، لأن عين الشرطة كانت ترقبه؛ فذهب الى باريس كرة أخرى، ولكن العاصمة الفرنسية كانت تعرفه حق المعرفة، وترغب عن قبوله وإيوائه؛ فغادرها إلى اسبانيا، فلقي فيها نفس الرفض والمطاردة؛ وكان صيته المشين قد غمر يومئذ جميع العواصم الأوربية، فلم يبق أمامه سوى الرجوع إلى ايطاليا

فعاد اليها يتجول فيها من مدينة إلى مدينة، والنحس يسايره أينما حل، والفاقة تفت في عزمه وفي آماله وأمانيه، وشبح الجوع يزعجه، ونذير الكهولة يروعه؛ لقد كان يومئذ فوق الأربعين، وقد خمدت جذوة اضطرامه، ولم يبق من ذلك الفتى المرح، والمغامر الجريء، سوى طلل متهدم؛ يقول لنا كازانوفا في مذكراته مشيرا إلى ذلك العهد: «لقد فكرت يومئذ، وربما لأول مرة في حياتي، في أيامي الخالية، ورثيت مسلكي، ولعنت الخمسين التي شارفت بلوغها، والتي قضت على جميع أحلامي، وحز في نفسي ألا أرى أمامي سوى بؤس الشيخوخة، والعطلة والفاقة، وألا تغذيني سوى شهرة مريبة، وحسرات عقيمة». أجل كان كازانوفا يومئذ كهلا، تغلق في وجهه جميع الأبواب وترغب عنه النساء! وكان أشد ما يحز في نفسه المكلومة أن يرى تلك المخلوقات الساحرة التي اعتاد أن يجذبها بروائه وسحره وذلاقته، تفر من كهولته الى أحضان الشباب النضر!

ولما بلغ به اليأس مبلغه فكر في العودة الى البندقية وطنه ومسقط رأسه؛ فسعى في استصدار العفو اللازم. ولم يدخر

والفناء في الدولة والوطن هو الظاهرة البارزة في الفاشية. ولهذا الفناء مظهران: مظهر سياسي يتمثل وطنية، ومظهر اقتصادي يتمثل تعاوناً. أما الوطنية فتتركز في تربية الفرد تربية فاشية، أي تربية وطنية؛ وتغرس في الطفل حب الوطن، حتى ينشأ على ذلك، موفقاً ما بين الحرية والنظام، فهو حر ليستكمل شخصيته، وهو خاضع لنظام يكفل التضامن. أما التعاون فيقوم على تنظيم اقتصادي دقيق، أساسه النقابات؛ فالنقابات في إيطاليا الفاشية منتشرة انتشاراً واسع النطاق، وسنعود إلى ذلك بعد قليل

(البقية في العدد القادم) عبد الرازق أحمد السنهوري

وسعاً فى التقرب إلى السلطات والتضرع اليها ، وعاونه على ذلك رسالة كتبها ردا على تاريخ للبندقية ظهر من قبل بالفرنسية بقلم « املو دى لاهوسى » وفيه مطاعن شـديدة ضد الجمهورية ونظمها ، وهى مطاعن يفندها كازانوفا فى رسالته بحماسة ؛ وكان لرسالته وقع حسن لدى السلطات ، فاستمعت أخيرا لتضرعه ومنحته جوازا أميناً بالعودة إلى وطنه فى أوائل سبتمبر سنة ٧٧٤

* * *

ولـكنه عاد شيخاً يجرجر أذيال البؤس والخيبة ، ويلفظه المجتمع الرفيع ؛ وكان صديقه وحاميه القديم السـيد براجادين قد توفى ، ولم يبق له عون ولا عضد ، فلبث مدى حين يعانى مضض الفاقة ؛ وبعد جهد جهيد عطفت عليه محـكمة التحقيق وعينته مخبرا سرياً بمكافآت تتناسب مع عمله وتقاريره ، ثم منحته مرتباً شهرياً قدره خمس عشرة دوقة ، فاطمأن نوعا إلى هذا المركز المتواضع ، واستطاع أن ينشى بعض الحفلات والمسارح ، وكان لا يزال يثير حوله بعض العطف بذكائه وظرفه ، وتعرف عندئذ بامرأة تدعى فرنشيسكا بوشينى ، وعاش معها فى نوع من الهدوء والاستقرار

بيد أنه كان يلعن تلك الحرفة الوضيعـة التى أُلجئ إلى احترافها ؛ أجل لقد كان كازانوفا جاسوسا زرياً لمحـكمة التحقيق التى يمقتها من صميم قلبه ، وكان بحكم عمله مكلفا بالتحرى عن المسائل السياسية والجرائم الأخلاقية والدينية ، التى طالما أمعن فى ارتكابها ؛ وكانت تغمر البندقية يومئذ موجة من الالحاد والانحلال الخلقى ، فكان من سخرية القدر أن يسهر كازانوفا على مراقبة الفساق والملحدين ؛ وكان يمضى تقاريره بامضاء مستعار وهو مع ذلك يضطرم سخطاً لذلك الدرك الأسفل الذى هبط اليه . وفى أواخر سنة ١٧٨١ رأت محكمة التحقيق أن تستغنى عن خدماته وقطعت مرتبه ، فتولاه يأس قاتل ، ورأى شبح الجوع ماثلا أمامه ، ورفع يومئـذ إلى محكمة التحقيق ذلك الالتماس المؤثر الذى يدل على ذلاقته وحسن بيانه :

« إلى حضرات العظماء الأجلاء سادتى القضاة المحققين :

« أتقدم اليكم ، أنا جاكومو كازانوفا ، وقد غمرتنى الحيرة ، وسحقنى البؤس والندم ، معترفاً بأننى لست أهلا على الاطلاق لأن أرفع اليكم التماسى المتواضع ، أتقدم جانياً بطلب الرأفة من الدولة ، وأسألها أن تمنحنى بطريق العطف والجود مالا تستطيع بعد التأمل أن تأباه على بطريق الانصاف

وانى لأضرع الى الجود العـالى أن يقوم بمونى حتى أستطيع الحياة ، وأستطيع فى المستقبل أن أقوم بالخدمات التى درجت عليها

وان حكمتكم لتأنس فى هذا التضرع الجليل صـادق اهبتى ونياتى »

ولـكن محـكمة التحقيق لم تصغ الى تضرعه ؛ فزاد يأساً وبؤساً ، وعول على الرحيل معتصما بما بقى له من جلد وعزم ، فسافر الى فينا ووصلها فى يناير سـنة ١٧٨٣ فى حال مؤلمة من الاعياء والفاقة ؛ ولبث يتجول حيناً فى فينا وباريس وهولندة فى ظروف نكدة مثيرة ؛ ومع ذلك فانا نراه أحياناً يحلم بمشاريع مدهشة فيفكر وهو فى باريس فى شق قنال أو اصدار جريدة ؛ بيد أنها كانت أحلام يائس مخرف ؛ وأخيراً استقر به المطاف فى فينا . وهنالك تعرف بسفير البندقية السنيور فوسكارينى فعطف عليه وعينه سكرتيراً له ؛ واستعاد الطريد اليائس شيئاً من بهجة الحيـاة ، واتصل مدى حين بالمجتمع الرفيع ، وظهر فى المآدب والمراقص ؛ ولـكن فوسكارينى لم يلبث أن توفى ، فتولاه اليأس القاتل مرة أخرى

وأقام مدى حين فى تبلتز فى شرحال حتى ساقته المقادير إلى التعرف بالـكونت فون فالدشتاين ، فتأثر لفقره ويأسه ، وأعجب بذكائه وخلاله فعينه أميناً لـمكتبة قصره فى « دُوكس » من أعمال بوهيا بمرتب حسن ؛ وكانت الـكونت فتى طروباً طيب القلب يعشق حيـاة اللهو والخلاعة ويجوب أنحاء أوربا فى طلب المسرة والمتاع ؛ وكانت خلاله مزيجاً من الشجاعة والضعف ، والـكبرياء والخجل ، والبذخ والجود ، فأغدق عطفه على المحب الشيخ الذى خاض غمار حيـاة باهرة مؤثرة وألفى نفسه بعد طول التجوال فريسة البؤس واليأس

* * *

وكان قصر دوكس مقاماً بديعاً فخماً ينبئ بما لآله من النبل التالد والغنى الباذخ ، وكانت مكتبته الشاسعة المنيرة تضم أربعين

ألف مجلد فحم فى مختلف العلوم والفنون ؛ فكان ذلك المقام النائى الذى يجد فيه المفكر الفيلسوف ضالتـه ، هو المستقر والثوى الأخير لذلك الذى ضاق به وطنه ، وضاقت به عواصم أوروبا

ولـكن كازانوفا لم يلق الهدوء الذى ينشد ؛ ذلك أنه أثار سخط الحشم والخدم بكبريائه وصلفه وجفائه ، فكانوا يمكرون صـفاءه بخبثهم ودسهم ، وكانت نفسه تفيض مرارة من ذلك الصراع الوضيع الذى يجعله مع الخدم على قدم واحدة . وكان كلما شكا أمره الى الـكونت أجابه بابتسامة رقيقة ، فاذا شكا الى الـكونتة والدته هدأت روعه وصرفته بأطيب الوعود

وكان يخفف من وقع ذلك الجدل النكد على نفسه ما كان ينعمه به الـكونت من العطف ؛ ذلك أنه كان حين مقامه بالقصر يدعوه دائماً الى مائدته ، والى مختلف الحفلات والمآدب . وعندئذ يستطيع كازانوفا أن يمتع نفسه بقسط من الترف الناعم ، ويبدى ما كمن من خلاله ومواهبه الساحرة ، ويشعر بشىء من السعادة والغبطة

وكان الدرس أشد ما يؤنسه ويملأ فراغه . ذلك أن كازانوفا كان مفكراً واسع الاطلاع ، وكان يعشق القراءة والدرس ، ولـكن تجواله المتواصل كان يحول دون أمنيته ؛ فلما استقر فى هذا المثوى الهادئ الحافل بصنوف الآثار المتعة ، ألفى فرصته ، وانكب على القراءة يترع من مناهلها ؛ ويدون ما عن له من زبدها . ومنذ سنة ١٧٨٦ يتحفنا كازانوفا بطائفة من الـكتب والرسائل المتعة منها . « مناجاة مفكر » Soliloque d,un penseur (سنة ١٧٨٦) ، و « قصة ادوار والزابيث » et Elizebeth Hist. A'Eoouard (سنة ١٧٨٨) ، وهى مزيج عزيب من الفلسفة والمغامرة والدين والتهكم . وفى سنة ١٧٨٨ ، أخرج كازانوفا كتاباً ممتعاً عن سجنه وفراره الشهير عنوانه « قصة فرارى من سجون جمهورية البندقية المسماة بالرصاص » L'Hist. de ma Fuite des Prisons deala Répuplique de Veniae ete ؛ وفى سنة ١٧٩٠ نشر رسالتين فى مسائل رياضية ؛ وفى سنة ١٨٩٧ نشر رسالة فلسفية أخلاقية عنوانها « خطاب الى ليونار سنتلاج » Lettre à Léonard Snetlage ، هذا الى رسائل أخرى ما زالت مخطوطة محفوظة الى يومنا فى مكتبة « دوكس » الشهيرة

بيد أن أعظم أثر شغل فراغ كازانوفا ، وخلد اسمه فيما بعد ، هو مذكراته الشهيرة التى بدأ كتابتها منذ سنة ١٧٩١ ، والتى نرجئ الـكلام عليها الى الفصل القادم

وكان مما يعتز به أيضاً ويؤنس أعوامه الأخيرة اشتغاله بمكاتبة بعض العظماء الذين عرفهم مثل الـكونت دى لانبرج ، والأمير دى لينى ، والأميرة كلارى ، والأمير بيلوزولسكى سـفير روسيا فى درسدن ، والـكونت كينج ، والأميرة لوبكوفتز ، والأب ديلا لينا ، وغيرهم ؛ وكذلك بعض صـديقاته الذين عرفهم فى أواخر حياته مثل فرنشيسكا بوشينى آخر صاحباته فى البندقية ، وسسليا روجندورف ، والبزافون در ريكى وغيرهن ؛ وكان يزور مكتبة « دوكس » كثير من العظماء والـكبراء من كل فج ، فيسر بلقائهم ومحادثتهم ؛ وكان كازانوفا يثير بذكائه ووفرة عرفانه حوله كثيراً من الاعجاب والعطف ؛ وقد أعجب به كثير من كبراء عصره ، وقدروا مواهبه وتنوع معارفه وطرافة تفكيره ، وبثوه اعجابهم وتقديرهم شفاها وكتابة ؛ وكان ذلك ينعمه سعادة وغبطة ورضى

بل لقد كان كازانوفا فى تلك الأعوام الأخيرة الهادئة من حياته الحافلة ، يتصور حول نفسه أفقاً من العظمة والشهرة ؛ وكان أيام تجواله قد زار الفيلسوف الأكبر فولتير فى قصره ومستقره المنعزل فى فرنى ، وأعجب بحياته الهادئة وشيخوخته الجليلة ، فكان يتصور نفسه فى أيامه الأخيرة ، فى نفس الأفق والظروف التى شهد فيها فولتير ، فتغريه تلك المقارنة الخلابة ، وتثير فى نفسه الهائمة طائفة من الأحلام اللذيذة الرائعة

وفى أوائل سنة ١٧٩٨ مرض كازانوفا وتفاقم مرضه بسرعة وشعر باقتراب أجله ؛ فتوالت عليه زيارات الأصدقاء والمحبين يغمرونه بعطفهم وعنايتهم ويرسلون إليه الأطباء والهدايا ؛ وفى الرابع من يونية قضى نحبه واختتم حياته العجيبة فى جو من العطف الذى طالما حرم منه أيام حياته ؛ ودفن على الأغلب فى مقبرة قصر « دوكس » ؛ بيد أن قبره لبث مجهولاً لم يكشف عنه البحث

(الخاتمة تأتى)

محمد عبد الله عنان

النقل ممنوع